نفحات قرآن

بقلم بخاري أحمد عبده

بسم اللـــه الرحمن الرحيم

« ومـــا أبرئ نفسى ، ان النفس لأمـــارة بالسوء ••• » •

المـــــامة سريعـــة

آية ـــ فى سورة يوسف ـــ تبين ديـــدن الأنفس ، وتقرر مبـــدأ نقـــد الذات •

* وسورة يوسف بما تبث من اشارات ، وترســـل من هـــدايات ، وتكشف من معادن ، وتؤصل من حقائق ، كوكب درى فى الكـــون القرآنى ، يسلط الأضواء على مشاهـــد فيها عبرة لمـــن اعتبر ، عبرة تورث القـــدرة على استيعاب المشاهد ، والنفاذ مـــن المشهود الى ما ليس بمشهود •

فالسورة مكيـــة فى جملتها ، أو بُرمَّتها ـــ على أرجح الاقوال فى ظنى ـــ نزلت تأسو آثار الفترة القلقة ، الموحشـــــــة ، التى اســـتطالت فملأت أبعاد عام الحـــزن ، وامتـــدت حتى طوتهـــا بيعتـــا العقبة فاستبان الفرج ، ووضح المخرج • فكأن السورة ـــ وهى تعمر جنبات هـــذه الفترة الحرجة ـــ نزلت منحـــة لتجلو محنة ، لتحكى محنة الايمان ، ومتاعب المؤمنين •

* نزلت تعبىء الطاقات ، وتنفخ فى الأرواح ، وتهون ، وتسرى عن محمد صلى اللـــه عليه وسلم وصحبه • والا فأين محنتهم من محنـــة الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ؟

وأين هم من محن الكيد والغدر ، والترويع ، والجب ، والرق والاغراء بالفاحشة ، والسجن ، والغربة ، ثم فتنة الملك ، والرخاء بعد الحرمان ؟

* ان الذى قدر على تفريج كروب يوسف عليه السلام ، ورفعه الى القمة بعد الحضيض هو ولى محمد ، وصحبه ، بيده الميزان يرفع ويخفض ، ويدافع عن المؤمنين ، ويعز الأصفياء الثابتين .

* وحينئذ يذكرون ، ويشكرون ، ويسألون ، ويقفون — متدبرين — ازاء آيات فى يوسف توجز القصة ، وتصور العاقبة ، وتعلن انتصار المؤمن الذى يخلص قلبه لله ، محسنا ، مستمسكا بالعروة الوثقى ، منخلعا تماما من ربقة المنصب ، ولمة الشيطان صابرا فى الضراء ، شاكرا فى السراء : (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ، وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ، قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين اخوتى ، ان ربى لطيف لما يشاء ، انه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات ، والأرض ، أنت وليى فى الدنيا ، والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين) يوسف ٩٩ — ١٠١ .

ما كنت بدعا من الرسل

* ان السورة وهى تصور أطباقا من المحن تداعت على فرد واحد — لما يبلغ أشده ، ولما يستو — فكونت عقدة لا حل لها فى حساب البشر ، ثم انفرجت حلقاتها عن « حل » لا يخطر على بال البشر . انما تثرى روافد اليقين فى قلوب المؤمنين ،

وتربيهم على أن يرتفعوا فوق المحن ، ويعلوا بأنفسهم عن جاذبية الأرض ، وصبغة الطين التى تدنس غير المؤمنين : (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا ، الا المصلين ...) المعارج ١٩ — ٢٢ .

* (لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر ، فيئوس ، قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ، ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى ، فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ، ولنذيقنهم من عذاب غليظ ، واذا أنعمنا على الانسان أعرض ، ونأى بجانبه ، واذا مسه الشر فذو دعاء عريض) فصلت ٤٩ — ٥١ .

* (فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ ، وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم ، فان الانسان كفور) .الشورى ٤٨

* (ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور . ولئن اذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى ، انه لفرح فخور . الا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة ، وأجر كبير) هود ٩ — ١١ .

* هذه الآيات ، وأمثالها تبرز الانسان قزما ، غشوما ، طائر اللب .

* والمولى بالقصص الهادفة ذات العبر يقف الأصفياء على مدارج الايمان ثم يواليهم بالتربية ، ويشملهم بالمعية حتى يبلغوا أشدهم ، ويستووا فى سكينة لا يشوبها ضيق ، ولا يصحبها توتر . وتأكيدا لهذا المعنى جاء عقيب آيات هود تلك ، قوله سبحانه : (فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك ، وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه

ملك ، انما أنت نـذير والله على كل شيء وكيـل) • هود ١٣

* فالسورة بأحداثها كأنهـا تقول لرسول الله « ما كنت بدعـا مـن الرسل » الا أن هـذا المفهوم صـدى كل المواقف التى وردت تحكى المواجهة بين الرسل وأقوامهم ، والفرق أن القصـة « فى يوسف » قصـة ممتـدة فيها الاثارة ، والتشويق ، والحبكـة ، والعقـدة ، والحـل ، وفيهـا الحركة الصادرة عن شـخصيات رئيسية ، وجانبية • أمـا فى غير يوسف ، فغالبا ما تسرد القصص سردا يكاد يكون برقيا ، ينشد المغزى بأقصر عبارة •

ومراعاة لهـذا الامتلاء الـذى حفلت بـه السورة ، بـدأ اللـه القصـة ممتنـا بما يقص ، وختمها كذلك ممتنا : (نحـن نقص عليـك أحسن القصص بما أوحينـا اليـك هـذا القرآن ، وان كنت من قبلـه لمن الغافلين) يوسف ٣ •

(ذلك من أنباء الغيب نوحيـه اليك ، وما كنت لديهم ، اذ أجمعـوا أمرهم وهم يمكرون) • يوسف ١٠٢ (لقـد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، مـا كان حديثا يفترى •••) يوسف ١١١

والسورة لا تقف عنـد حـد المؤاساة ، ومعالجة الكآبة التى داخلت النفوس عام الحزن ، بـل تتخطى الأعوام ، والأجيال ، وتنفتح على عيوننا الكليلة التى تطرف تحت أطبـاق الحـيرة ، والضيعة ، والخزى •

١ ــ لتهـدينا السبيل •

٢ ــ وتدلنا على تأصيل العدوانية ، والخبث فى سـلالة اسرائيل عليـه السلام •

٣ ــ ولتعمق جـذور الأمل ، وتجتث دواعى القنوط المخيمة على كثير من النفوس : « حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ••• » •

وأهم ما فى السورة بعـد ذلك ، أن اشعاعاتها تتغلغل فى كيـان سلالة اسرائيل فتكشف جوانب الخسة ، ومكامن اللؤم ، وتفضح الطبيعة العقربية التى انفردوا بهـا دون العالمين ، مما يجعلنا نوقن بتأصـيل الشر فى هـذه السلالة ، ونحـذر فلا نأمن لهم أبـدا ، ولا نتنـزل فنتخـذ منهم بطانة ، وأوليـاء .

* واسرائيل هو الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يعقوب ، بن اسحاق ابن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام ، فليت شعرى مـا الـذى أورثهـم تلـك الطبيعة ؟

ان علماء الوراثة يتحدثون عن الخلايا التناسلية وما تحمل من كروموسومات تحتوى على جينات تحمل من الصفات الوراثية مـا تحمل ، ويرون ان تلـك الكروموسومات قـد تطفر فتتخطى أجيالا لتظهر بخصائصها فى جيـل متأخر .

وظنى أن أساس تلك الكروموسومات ، والجينات ، هـو التراب جـاء فى الأثر (أن اللـه خلق آدم من قبضـة قبضهـا من جميع الأرض ، فجـاء بنـو آدم على قـدر الأرض ، فيهـم الأحمر ، والأسود ، والسهل ، والحزن ، وبين ، بين) .

وهـذه الأصول الترابية المحمولة فى الكروموسومات ، والجينات والحـافلة بالشر تخطت ـ فى ظنى ـ من تخطت من أنـاسى ، وعبرت أجيالا لتتمركز فى سلالة اسرائيل ، الا من عصم اللـه .

وسورة يوسف ، كشفت مستودع الشر المستقر فى هـذه السلالة .

واسرائيل عليه السلام كان يـدرى أن حظ سلالته من الشر حظ عظيم ، وانطلاقا من احساسه بهـذا نصح ولـده يوسف بـأن يحـذر ، ويتكتم رؤيـاه المبشرة (اذ قال يوسف لأبيه ، يـا أبت انى رأيت أحـد عشر كوكبـا ، والشمس ، والقمر ، رأيتهم لـى

ساجدين • قال يـــا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لـــك كيـــدا ان الشيطان للانسان عـــدو مبين) (بل سولت لكـــم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل •••) •

والانفجار الشرانى تلحظه وأنت تستعرض من ســـورة يوسف :

١ ــ الآيـــة التى تنقل الى السطح ما يعتمل بين الجوانح ويغلى فى الأعماق (اذ قالوا ليوسف ، وأخوه أحب الى أبينا منـــا ونحن عصـــبة) •

٢ ــ وفى قحـــة بالغـــة يرمون والـــدهم عليـــه السلام بأبشع التهم • (ان أبانا لفى ضلال مبين) « تاللـــه تفتأ تذكـــر يوسف حتى تكون حرضا ، أو تكون من الهالكين » « تالله انـــك لفى ضلا لـــك القديم » •

٣ ــ وابن آدم الاول عـــدا على أخيه فقتله ثـــم ندم ، أمـــا ورثتـــه فقـــد تملكتهم الجريمة فارتكبوها ثـــم عادوا قريرى الأعين سعداء • (اقتلوا يوسف •••) •

٤ ــ وتلحظ طابع الخديعة وهم يحتالون على أبيهم ويلبسون لـــه ثيـــاب الضأن من اللين (يـــا أبانا مالك لا تأمنـــا عـــلى يوسف وانـــا لـــه لناصحون • أرسله معنـــا غـــدا يرتـــع ويلعب ، وانا لـــه لحافظون) « لئن أكلـــه الذئب ، ونحن عصبة انـــا اذا لخاسرون » •

٥ ــ استحلال الكذب مع قـــدرة فائقة على التزييف ، والتمثيل : (وجـــاءوا أباهم عشاء يبكون • قالوا يـــا أبانا انـــا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عنـــد متاعنا فأكله الذئب ، ومـــا أنت بمؤمن لنـــا ولوكنـــا صادقين • وجاءوا على قميصه بـــدم كـــذب •••) • (ان يسرق فقـــد سرق أخ لـــــه من قبـــل) •

٦ ــ وتجىء شهادة يوسف عليه الســـلام تدمغهم بوصمة الشر

(أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون) .

هؤلاء هم سلالة اسرائيل : تآمروا ضد أبيهم ، وعدوا على أخيهم فكيف بغير أبيهم وأخيهم ؟

أنماط من الناس

والسورة فوق كل ما مضى لوحة مضيئة تنبض بالحياة ، وتعكس أنماطا من الناس ، وأشتاتا من النفسيات ، ولا نزاع فى أن التأمل فى هذه النفسيات ، وتلك الانماط يزيد خبرة المؤمنين ، ويثرى مفاهيمهم عن رفقاء الطريق ، ويحملهم على أن يتخذوا لكل حالة لبوسا ، ولكل مقام مقالا .

* وابتغاء هذا اهتم القرآن الكريم بلفت أنظار المؤمنين الى معادن الناس ، وطبائع الناس ، ومناهج الناس ، ومذاهب الناس: « ومن الناس ... ومن الناس ... فمن الناس » ذلك حتى ينظر المسلمون ، ويعلموا أنهم لا يعيشون حياة موحدة النغم ، رتيبة الايقاع ... بل حياة مبعثرة الخطا ، موزعة النظرات متنافرة الوجهات . وان المؤمن الذى صهر فى بوتقة القرآن ، يستطيع بما أوتى من وضوح رؤية ، وبالغ حكمة ، وحسن تصرف ، أن ينظر ، وينقد ، ويجمع النظائر الخيرة ليصوغها فى قالب ، ويحدوها الى الطريق المستقيم . والمهمة هذه بحق ثقيلة دونها أشواك السعدان التى يخرطها الشيطان ، ويبثها فى الطريق ، فهى — لهذا — تقع فى دائرة ما قال الله فيه : (وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) .

* نعم ان السورة تكاد تكون معرضا لنفسيات مختلفة نذكر منها على سبيل المثال :

١ — نفسية ساذجة شريفة ، تفتحت بأمر الله ، رقيقة شفافة

وعرجت باذنه ، رزينة رفافة ، واستقبلت صورا نورانية يبثها القدر لتلقى فى الروع ، ولتهيىء للأحداث (اذ قال يوسف لأبيه ، يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا ، والشمس ، والقمر رأيتهم لى ساجدين ...) ومثل هذه النفسية حرية ان ترى البشرى بين نذر الهلاك ، وأن تلهم بما فى ضمير المستقبل « فلما ذهبوا به ، وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون » .

٢ ــ نفسية نبوية عالية ... أحست بما تميز به يوسف ، فألفته وآثرته لما بين نفسيهما من نسب ، ولما بين روحيهما من مشاكلة ، فانطلقت تحذر ، وتبشر ، (يابنى لا تقصص رؤياك على اخوتك ، فيكيدوا لك كيدا ، ان الشيطان للانسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل : ابراهيم واسحاق ، ان ربك عليكم حكيم) هكذا أبصرت النفسية النبوية أكاليل النار تعقد فى الأفق على جبين يوسف ، وأبصرت بشائر النعمة المسبغة .

٣ ــ وهذه النفسية النبوية ذات وجهتين ، فهى من زاوية أخرى نفسية أبوية ، رأت بحس الأبوة ، شرورا ، ودخانا يتكاثف حول ابنه الأثير ، نتيجة تميزه المرموق ، وأبصرت خلال الدخان شياطين تتكالب ، فيستريب ، ولما يضع يده على مكمن الخطر « انى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف ... » (بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .

٤ ــ نفسية بل نفسيات اسرائيلية مترعة بالحقد ، تطفى فى فى الخصومة ، وتكيد فتسرف فى الكيد ، وتحتال ، فتلبس

جلود الضـــأن على قلوب الذئاب «... اقتلوا يوسف ...»
(مالك لا تأمنا على يوسف) دأبهـــا أن تلـــح ــ وتلهف
الحافا دءوبا حتى يتحقق المـــأرب « أرسله معنا غـــدا ...»
وهى فى جموحها المودى تتغنى بـــذاتها ، وتـــدل بقوتها
كلما استشعرت قـــوة . (أحب الى أبينا منا ونحن عصبة)
(لئن أكلـــه الـــذئب ونحن عصـــبة) ودأبهـــا التزييف ،
ومبدؤها « الغاية تبرر الوسيلة » (وجاءوا أباهم عشـــاء
يبكون) .

• ــ نفسية غلبت ماديتها انسانيتها تنشـــد الثروة من كل طريق
(وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه ، قال يـــا
بشرى ، هـــذا غلام ، وأسروه بضاعة ، واللـــه عليم بمـــا
يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معـــدودة ، وكانوا
فيـــه من الزاهـــدين) .

٦ ــ نفسية وادعة تنعم بمشاعر الحنـــان ، والبر « وقال الـــذى
اشتراه من مصر لامرأته ، أكرمى مثـــواه ، عسى أن ينفعنا
أو نتخـــذه ولـــدا ... » .

٧ ــ نفسية جائعة ، اجتاحتها الرغبة ، وأثارها نـــداء الجســـد
المجنون ، وأفقـــدها رشدها الأصـــداء المنبعثـــة من النفسية
الاخرى ، الزكية ، السوية ، التى برئت على الطهر ، وربيت
على مراقبة اللـــه : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ،
وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لـــك ، قال معـــاذ اللـــه ، انه
ربى أحسن مثواى ، انـــه لا يفلح الظالمـــون . ولقـــد همت
بـــه ، وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربـــه ، كذلك لنصرف
عنه السوء ، والفحشاء ، انـــه من عبادنا المخلصين) .

* والنفسية الجائعة التى تعانى السعار تنطفىء فيها كل معـــانى
الانسانية لتحل محلهـــا معانى الاشباع ، والانتقام (مـــا جزاء
من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن ، أو عـــذاب أليم) . (ولئن
لـــم يفعل مـــا آمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين) .

٨ ــ ووجه آخر للنفسية الوادعة تلك تتميز ــ بالاضافة الى ما سبق ــ ببرودة فى الطبع ، ونقصان فى الرجولة ، فمراعاة للفراغ العاطفى الذى تعيشه زوجه نتيجة تراخيه ، واسترخائه « يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك »٠

٩ ــ ونفسية النسوة تتسقط ن الأخبار ، وتتلقطن الأسرار وتتناولن الأعراض ، قادحات مزريات ، ايحاء بأنهن وحدهن الطاهرات العفيفات (وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، انا لنراها فى ضلال مبين) وامرأة العزيز بنفسيتها الجائعة كادت لهن حتى يسقطن ، كما سقطت ، وسقطن واشتركن فى المراودة ، فاستعصم يوسف ولاذ بجناب ربه (قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى كيدهن ، أصب اليهن) ٠

١٠ ــ ونفسية المكروب أرهقته القيود (ودخل معه السجن فتيان) ونفسية المكروب طوته فرحة الخلاص (يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ٠٠٠) (وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه ٠٠٠) ٠

١١ ــ ونفسية الملك ، هالته رؤيا غريبة ، مركبة متنافرة العناصر ففقد توازنه ، وتوجس شرا (وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ، ان كنتم للرؤيا تعبرون) ٠

وبعد ــ فلست بصدد الخوض فى غمار القصة ، ولا أنا مقدم على تفسير السورة ولكنى بما قدمت أردت أن أمهد لما أردت من حديث عن النقد الذاتى على ضوء (وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء) ٠

بخارى أحمد عبده